المنهج السيميائي في ضوء المناهج الأخرى

د/ خيرة قصري -.جامعة بجاية .

المقدمة : –

في هذه المحاضرة سأحاول عرض المنهج السيميائي بالتركيز على هدف التحليل السيميائي و طريقته بما فيها من مستويات و من عناصر و أدوات ، مع الإشارة منذ البداية إلى أن الجوانب الأربعة (هدف التحليل السيميائي ، طريقته و مستوياته ، عناصره أو أدواته) قد يتعذر إدراكها إدراكا كليا في غياب الإلمام الشامل بالخلفية المعرفية للنظرية السيميائية ، باعتبار هذه الخلفية متعددة المنابع (اللسانيات ، علم السرد ، الظاهراتية ، المنطق الصوري) ، ومع الإشارة أيضا إلى كونها قد استفادت من نقائص المناهج الأخرى القديمة و المعاصرة ، مما مكنها من تقديم منهج واضح وشامل . في رأي المتواضع . هذا المنهج الذي سيتم عرض مكوناته الأربعة المذكورة أعلاه مع عقد المقارنة بينه و بين المناهج الأخرى ، من حيث تصور كل منها للمكونات المشار إليها ، وذلك على النحو الآتي :

I . هدف التحليل السيميائي هو المعنى : .

يهدف التحليل السيميائي للنصوص إلى ملامسة المعنى ، و هو يتقاطع مع المناهج الأخرى حول هذا الهدف ، إذ يرى صانعوا المنهج السيميائي ، وعلى رأسهم **غريماس** بأن كلا من النقد الاجتماعي « sociocritique » و التحليل النفسي للأدب « psychanalyse littéraire » و النقد الموضوعاتي «critique thématique» وغيرها من الممارسات المعرفية الأخرى ،التي أخضع لها النص الأدبي ، ممارسات غير مؤسسة وغير دقيقة ، مما جعل قراءة المعنى لدى أصحاب هذه الاتجاهات مجرد **ترجمة حرة** [1] ، لا تخضع لضابط ، و لا تستند إلى دليل ملموس ، و ما المعنى المزعوم الذي يتوصل إليه الدارسون بهذه المناهج ، إلا انتقال من مستوى لغوي إلى آخر، أو صب أحد هما في الآخر، كأن يختزل معنى نص بأكمله في جملة أو فقرة ، من دون توفر ضوابط ملموسة، تجسد طرق تجلي المعنى أو المضمون ، و من دون تحديد للقنوات التي تحكم مساره و تحولاته ضمن النص .

II . طريقة التحليل (المستويات و العناصر) :

يستند المنهج السيميائي في البحث عن المعنى / المضمون إلى مستويين ملموسين هما :

1 – مستوى البنية السطحية [2] بمكونيها السردي و الخطابي ، فالأول يحتوي على العناصر التالية :

أ – الحالة و التحول « état et transformation ».

ب – البرنامج السردي « programme narratif » .

ج – الإنجاز و الفاعل المنفذ « performance et sujet opérateur » .

د – الكفاءة « compétence» .

هـ – الرسم السردي « schéma » .

و – النموذج العاملي « modèle actantiel » .

إذا كان المكون السردي بعناصره المذكورة ، يهدف كله إلى دراسة المضمون / المعنى ، الذي يراد توضيحه ، فهو لا يف بكل أبعاد مستوى المضمون ، لذا وجب ترك مجال للمكون الخطابي[3] باعتباره جزء من البنية السطحية أو التنظيم السطحي ، و باعتباره مكملا للتحليل السردي عبر تكفله بالعناصر الآتية :

أ – الصورة أو الوحدة المعجمية « figure » .

ب – المسار الصوري و التشكل الصوري« **parcours figuratif et configuration**».

إذ تلتقي الصورة و المسار الصوري و التشكل الصوري ضمن الصوري « figuratif »، الذي يقصد به على العموم كل مضمون لنظام تمثيلي مرئي ، له مقابل على مستوى الدال أو العبارة في العالم المدرك ، أو الحقيقة المحسوسة ، ففي خطاب ما ، كل ما تعلق بالحواس الخمس يعتبر صوريا ، و ينقسم الصّوري إلى قسمين [4]: الصّوري الإيقوني « figuratif iconique » ، و الصّوري المجرد « figuratif abstrait » ، فالأول هو الأكثر إيهاما بالمرجعية ، و الأكثر قربا من الواقع ، لتضمنه قدرا من التفاصيل الملموسة التي يعمد إليها المتلفظ ، خاصة عند الوصف الدقيق للأشياء ، أما الصّوري المجرد فهو لا يلتقط من الواقع أو المرجع إلا حدا أدنى من السّيمات أو الملامح المحددة للشيء الموصوف ، و التقابل بين النوعين ليس من قبيل التصنيف « catégoriel » ، و إنما تدريجي « graduel » ، حيث يتم الانتقال من الأول إلى الثاني بطريقة غير محسوسة ، و ليس للتقابل

بينهما من طبيعة مادية أو جوهرية ، بل هو مجرد علاقة و معطى متغير ، يمكن إدراجه ضمن هذا القطب أو ذاك ، و ذلك وفقا للسياق المؤطر لهذا المعطى ، و يؤسس الفرق بين الإيقوني و المجرد أيضا ، استنادا إلى قلة أو كثرة الملامح و المميزات التي تتضمنها الوحدات أو الحدود التي تتم المقابلة بينها ، و التي تسمى في علم الدلالة المعجمي « sémantique lexicale » بـ : الكثافة السيمية « densité sémique » ، هذه الكثافة التي يكشف عنها التحليل السيمي « analyse sémique » لوحدة ما ، فكلمة منتصب « dressé » ، تتضمن معاني منها (الزمنية / العمودية / الاتجاه من الأسفل إلى الأعلى / الحركة) ، فهي بهذا تندرج ضمن الصّوري الإيقوني .

إن تميز الخطاب يردّ أولا و قبل كل شيء إلى الوسائل التصويرية التي يوظفها ، غطاءا للنظام السردي بمكوناته المختلفة ، هذا الغطاء الذي يتنوع بتنوع العالم المحسوس ، بوصفه سندا للعالم المتخيل ، لذا فإن الاهتمام اللازم به من طرف المحلل ، يفضي به إلى الكشف عن تعدد المعاني للنص الواحد ، و عمق المضامين المطروحة .

2 – مستوى البنية العميقة :

أما البنية التحتية العميقة، المتحكمة في البنية السطحية و المولدة لها ، التي يمكن صياغتها في تمثيل منظم لشكل المضمون ، فهي تتوفر على عناصر ، ذات طابع منطقي تتمثل في :

أ – السيم أو المعنم « sème ».

ب – السيميم أو المعانمية « sémème ».

ج – المربع السيميائي « carré sémiotique ».

د – التشاكل (isotopie) بنوعيه ، السيميولوجي و الدلالي .

يأتي السيم في تعالقه مع السيميم كوحدة أساسية في التحليل الدلالي ، و لا يتأتى تمثله إلا في إطار محدد يسمى البنية الأولية للمعنى ، و السيمات عددها محدود نسبيا ، إضافة إلى كونها بسيطة كيفا ، و هي ترد منظمة على شكل أزواج متقابلة الحدود أو العناصر، فلو أخذنا مثلا السيم / حياة / نجده لا يتحدد إلا في تقابله مع السيم / موت / ، كذلك الأمر بالنسبة للسيمين / مباح / و / محرم / إذ أن كل مجتمع و كل حضارة ترتب و تصنف هذه المعاني البسيطة بطريقة خاصة . لا وجود للسيم إلا

في علاقته بالسيميم من جهة ، و في علاقة هذا الأخير بالليكسيم أو الوحدة المعجمية من جهة أخرى ، هذه العلاقة التي طرحت ضمن المكون الخطابي بتفصيل نسبي .

أما المربع السيميائي فهو يؤدي دور النموذج المبرز لبنية الدلالة الأولية ، حيث يسمح بصياغتها على شكل أزواج من العناصر المتقابلة ، كما يرسم ثبات المعنى و حركته ، أو كيفية توليده ، باعتبار أن توليد المعنى حسب رأي **غريماس** لا يكون إلا عن طريق تغيير المعنى الأصلي ، إذ يلمح ارتباط المربع السيميائي بمستوى من المستويات الدلالية ، يسمى الدلالة الأصولية العميقة « sémantique fondamentale profonde » (81) ، و هو متصل بالنحو السردي « grammaire narrative » ، باعتبار أنه يتألف من مكونين اثنين ، ككل الأنحاء ، من جانب صرفي و آخر تركيبي ، الجانب الأول تصنيفي و الثاني يجسد مجموعة العلاقات الإجرائية ، التي يتم بموجبها تحريك الوحدات أو الحدود التي يتكون منها المربع ، باعتبارها وحدات صرفية ، لأن المعنى في ارتباطه بالنص معطى متحول : << فالمعنى ليس معطى ثابتا بل هو قابل للتغير إذ هورهين ديمومة النص القصصي و لذلك كان لابدا للعلامية أن تلازم القصصية كشكل مجرد للتغيير الحاصل في النصوص فتحويل الدلالات مرده تطور الحكاية و الأحداث في إطار زمني ومكاني ما و التغيرات الطارئة على سلم القيم من جراء هذا الامتداد الزمني و الوظائفي .>>(5)

أما التشاكل باعتباره مفهوما أدخله **غريماس** إلى الدراسات السيميائية ، حيث عرف التشاكل الدلالي بأنه << مجموعة متراكمة من المقولات المعنوية (السيمات) التي تسمح بقراءة متشاكلة للحكاية كما نتجت عن قراءات جزئية للأقوال بعد فك إبهامها ، هذا الحل نفسه موجه بالبحث عن القراءة المنسجمة >> (6) .

إذا دققنا النظر في مستويات التحليل و أدواته لدى المنهج السيميائي ، و حاولنا مقابلتها بما وفرته النظرية الشكلانية الروسية ، فإننا نجدها على الرغم من سعيها إلى "علمنة" منهج دراسة النصوص الأدبية ، بدآ بالقصة الشعبية ، و على الرغم مما قدمته من معطيات حول بنية القصة (نموذج بروب) ، فإن مفهوم البنية عند الشكلانيين غير واضح المعالم ،إذ بقي السؤال مطروحا حول مدى إمكانية الاكتفاء بالدراسة المحايثة للنص ، إذ بدا لبروب أن هناك صلة بين البنية الوظيفية للقصة و الواقع الثقافي المفرز لها ، خاصة ذلك الجزء المتمثل في المعتقدات الدينية(7) .

أما إذا تقدمنا قليلا ،يقابلنا التحليل البنيوي للنصوص السردية ، كمنهج مستوحى من نموذج الشكلانيين ، مع التعديل و الضبط لتصورات **بروب** ، باقتراحات جديدة ، كما هي الحال عند **لفي ستروس** « **Levy Strauss** »(8) ، **رولان بارت** (9) « **Roland Barthes** » ، **كلود بريمون** « **Claude Brémond** » و **تزيفان تودوروف** « **Tzévétan Todorov** » ، حيث تمثل التعديل و ضبط التصورات في :

أ . تحديد عناصر بنية الحكاية .

ب . مستويات المعنى .

ج . الوظائف .

د . الأفعال .

هـ . السرد .

و . نظام الحكاية .

لم تتحدد عناصر بنية النص السردي ، و لم تضبط دفعة واحدة ، بل تم ذلك عبر مراحل ، و ما المحاولات العديدة في هذا الاتجاه إلا دليل على طموح الدارسين للنصوص الأدبية إلى تحقيق الدقة ، بالنسبة للمفاهيم و الأدوات الإجرائية ، و على رأسها مفهوم " البنية " ، و هو ما حاول **بارت** و رفاقه البنيويون القيام به ، إذ انتبه **بارت** إلى ضرورة اللجوء إلى نموذج التحليل اللساني المطبق على الجملة ، كما رأى بأنه من غير المعقول أن تظل لغة الحكاية مهمشة ، و بأنه لا يمكن الفصل بين الأدب و اللغة ، لأن اللغة مسايرة للخطاب ، و هي التي تقدم له بنيتها ، لتنعكس من خلالها صورته (10) .

أما بشأن مستويات المعنى « niveaux de sens » يؤكد **بارت** أن اللسانيات وفرت للتحليل البنيوي للحكاية مفهوما حاسما، ألا و هو مستوى الوصف و التحليل « niveau de description » ،أي مستويات التحليل اللغوي (الصوتي ، التركيبي ، الدلالي) ، كما أقر مفهوم البنية ، حيث ذكر بأن المستويات الثلاثة لا يمكن الفصل بينها ، لكون الوحدة الصوتية أو التركيبية أو المعجمية عاجزة عن تأدية المعنى إذا كانت معزولة عن المستويات الأخرى .

انطلاقا من نظام النص السردي ، من بنيته الشبيهة بسائر الأنظمة الدالة ، و انطلاقا من كونه تركيبا بين وحدات تم تصنيفها مسبقا ، يقسم **بارت** الوظائف إلى نوعين ، الأولة أساسية « fonctions cardinales » و الثانية فرعية « catalyses » ، و الوظائف . عنده . مدلولات تتجسد من خلال الدلائل (الكلمة ، الجملة ، الملفوظ) ، تخضع الوظائف بفرعيها إلى ترتيب و تركيب ، يسميه نحو الوظائف « syntaxe fonctionnelle »[11] ، أي تلك القواعد التي يتم بموجبها تركيب الوظائف ، و التي تجعلها متتابعة ، وفقا لعلاقة منطقية أو زمنية .

مما يلاحظ على محاولة **بارت** لتحديد مستوى المعنى،على الرغم من إقتدائه بالنموذج اللساني ، فإنه لم يجد بديلا لمفهوم الوظيفة ، باعتباره وحدة معنوية ، إذ بقي مستوى المعنى عنده غامضا ، عكس ما هو عليه عند **غريماس**(البنية العميقة و عناصرها).

ارتبط مفهوم " الفعل " لدى البنيويين بالشخصية، و ظلت كعنصر من عناصر نظام النص السردي تطرح إشكالا ، و لحله ظهرت فرضيات عديدة، تسعى كلها إلى تحديد الشخصية ، إذ عرفت بأنها مشارك « participant » ، و هو التصور الوارد عند **كلود بريمون**[12] لكن رغم سعيه و سعي **تودوروف** لفض الإشكال ، ظل مطروحا ، و هو ما دفع **غريماس** إلى تقديم البديل المتمثل في النموذج العاملي .

أما " السرد " باعتبار الحكاية موضوعا يتم تبادله بين مرسل و مرسل إليه ، شبيه بالرسالة في النموذج التواصلي اللساني ، تستوجب راو و سامع أو قارئ ، فقد ركز التحليل البنيوي للسرد على السنن التي من خلالها يتم التدليل على الراوي و القارئ ، و قياسا على اللغة يكون السرد بوصفه عنصرا من نظام الحكاية خاضعا لنظامين « personnel et apersonnel » يتعذر تمييزهما ، مما يستوجب إعادة كتابة الملفوظات و صياغتها .

يلاحظ أيضا على معطيات التحليل البنيوي فيما تعلق بالسرد عدم وضوح عناصر بنيته ، على النحو الذي هي عليه في المنهج السيميائي .

يظل مفهوم " البنية " بوصفه المفهوم الأساس لدى أغلب المناهج متسما بالغموض ، اكتسح هذا الغموض كل الاتجاهات ، كالشعرية « poétique » ، حيث لفت **بنفنيستت** انتباه الدارسين حول هذه المسألة : << ... ... فهي تندرج في الاتجاه العام الذي تفرضه الهيكلية ، غير أنه توجد

درجات مختلفة في « الهيكلية » و لكي ينعت بحث إنشائي بأنه هيكلي ، يجب أن تتوفر فيه شروط أخرى لخصها « بنفنيست » في معرض حديثه عن الألسنية في النقاط الآتية : « الوعي بوجود نظام ، الاهتمام بتعميق التحليل حتى نبلغ الوحدات الأساسية ، الإختيار الواضح للمناهج » >> (13) ، يتأكد التردد حول مفهوم البنية أيضا عبر ما جاء بصددها لدى التأويلية عند **بول ريكور** : << من الواضح إذن أن علاقة الفاعل بالبنية التي يمكن أن تدعى علاقة التجدد لا يمكن اختزالها إلى علاقة انطواء تحت فئة أكبر ، ربما أن الأفعال الإنسانية تفسر بمعونة بنى من هذا النوع ، فلا يمكن للتفسير أن يكون هرمسيا ناموسيا فالتفاوت دائما ممكن ، و ما يحدث في هذا البعد حتى في حالة الدرجة الصفر من التفاوت ،أي الاكتفاء التام بالبنية لا تفسره البنية ، و لا يمكن أبدا اختزال الممارسة إلى انكشاف بسيط للبنية >> (14) .

مما يثبت أيضا عدم وضوح مفهوم البنية بالشكل الذي يجعلها أداة عملية في مرحلة ما ، موقف **جاك دريدا** ممثل المنهج التفكيكي ،الرافض لمفهوم البنية : << للرجوع إلى المقابلة بين القراءة الشكلانية و القراءة المحايثة أو الباطنة للنص ، سأقدم هنا أيضا جوابا سلبيا و أقول أن هذه المقابلة لا ترضيني ، أعتقد أن من غير الممكن الإنحباس داخل النص الأدبي ، إن المحايثة أو الباطنية الأدبية تقوم في نظري على الاحتماء داخل الحدود المقامة تاريخيا و التي تفترض مجموعا كاملا من العقود التاريخية المتعلقة . . . . . إننا لا نستطيع أن نبقى داخل النص ، و لكن هذا لا يعني أن علينا أن نمارس بسذاجة سوسيولوجيا النص أو دراسة البسيكولوجيا أو السياسة . . . . . إنه سواء في القراءة الباطنة أم في القراءة التفسيرية للنص عبر مسيرة الكاتب ، أو تاريخ الحقبة يظل شيئا ما ناقصا دائما >> (15) .

يستمر حال مفهوم البنية بين الأخذ و الرد إلى غاية تقديم **غريماس** تصورا واضحا لها في كتابه « الدلالة البنيوية » (16)، أرصي عليها المنهج السيميائي ، مما جعله يتسم بالوضوح النسبي – فيما تعلق بمستويات التحليل و أدواته الإجرائية – مقارنة بالمناهج المذكورة .

الهوامش

1. A.J.GREIMAS : du sens , éd . Seuil 1970 , p.13 .

2 – المرجع نفسه ، ص. 166-171 .
3 – محمد الناصر لعجيمي : في الخطاب السردي ، نظرية قريماس ، الدار العربية للكتاب ،1993 ، ص. 75 -76 .
4 . J. Courtes : Analyse sémiotique du discours , opcit. , pp. 166-167 .
5 . سمير المرزوقي و جميل شاكر : مدخل إلى نظرية القصة ، ديوان المطبوعات الجامعية . الجزائر، ص 123 .
6 . A. J. Greimas : Du sens ,opcit , p. 188 .
7 – Vladimir Propp : La Morphologie Du conte , Traduction De Marguerite Dérida et autres , Ed ,seuil ,1965 P.143-144.
8 – Claude Lévy Strauss : Le cru et le cuit , éd. PLON – 1964 .
9 – Roland Barthes et autres : L'analyse structurale du récit , communication N°8
10 – المرجع نفسه ، ص. 9-33 .
11 – المرجع نفسه ، ص. 22-23 .
12 – Claude Brémond : La logique du récit , éd. Du Seuil , P. 13-16.
13 . تزفتان تودوروف : الإنشائية الهيكلية ، ترجمة مصطفى التواتي ، مجلة الحياة الثقافي ، وزارة الشؤون الثقافية . تونس ، سنة 1985 ، عدد 36 / 37 ، ص 213 .
14 . بول ريكور : الوجود و الزمان و السرد، ص 235 .
15 . جاك دريدا : الكتابة و الاختلاف ، ترجمة كاظم جهاد ، ص 51 .
16 – A. J. Greimas : Sémantique structurale , P.U.F. 1986 , p. 19-28 .